

تحية إلى حسين البرغوثي

رجاء غانم*

صباح الخير يا حسين

صباح رام الله غادره الضباب الذي تحب، طردته يد العمران المجنون وأجندة رأس المال المتوحشة.

رام الله التي ارتبطت شوارعها في ذاكرتي بحضورك المفاجئ، كأن لك ألف روح تظهر في كل شارع وزاوية.

صباح الدانوب والأنهار التي تصيب الشعراء بنوبات بكاء وقصائد وغناء.

صباح سياتل مبللة بالمطر والأسئلة التي حيرتكَ وسهّرتكَ طويلاً.

صباح الشعر والفلسفة والسينما والحب المجنون الذي لا يستكين.

ستسألني كعادتك: ماذا كتبت هذه الفترة؟ ما الجديد؟ وسأحني رأسي أمامك كبنت

تدّعي الندم على خطأ ارتكبته رغماً عنها. لم أكن شجاعة بما يكفي يا حسين كي أسلم رأسي لمقصلة الشعر. كنت أكتب مرفّهة شاردة وفي بعض الأحيان مفككة لا أعرف لملمة نفسي، لكنني كنت المسيطرة، ولم أتركه يقودني كعمياء. لم أستسلم له بما يفيه حقه في الطغيان. ولو كنت حياً لقلت لي: تحرري من الخوف يا رجاء، لا تخافي، بعد هذه القمة، بعد هذا السقوط الحرّ، سيكون كل شيء رائعاً وبسيطاً. أتذكر؟

سأتذكر اليوم واليوم فقط يا حسين بعد هذه الأعوام كلها أنني كنت أغار من تهوّرِكَ، من شغفك الذي لا ينتهي بالحياة، لشربها دفعة واحدة، وعيشها دفعة واحدة، ومغادرتها بسرعة كما فعلت أنت.

ماذا تغير منذ أن طار جسدك بعيداً عنا؟ توحش الإنسان وأحرق مزيداً من الغابات وطقن الأرض في خاصرتها مئات المرات.

تعرف؟ هناك اختراع اسمه الفاييس بوك، فيه حيطان وحرارات للناس ليقولوا ما يشاؤون. وفي كل ليلة أتجول هناك باحثة عن رائحة شعر، عنك، عن المنابع الأولى فلا أجدها. تحوّلنا إلى ماكينات كتابة وزيف وأحداث لا معنى لها، وقتلنا الشعر يا حسين. قتلناه بضربة واحدة، وجلسنا نتناول العشاء بهدوء قرب جثته.

في كثير من الأوقات أفتقدك، أفتقد جلساتنا وأحاديثنا المشبعة بالشعر والفلسفة والموسيقى والسينما والتحليل الذكي، أفتقد زمناً كنا نعرف فيه أن مشاريعنا ما زالت صغيرة غضة، وهي بحاجة إلى تعب وصبر كبير كي تورق، وكنت أنت المعلم والملم، أداة التحفيز الأكثر حضوراً في جيلي. أتذكر جلسات "بيت الشعر"؟ أتذكر وجهي ووجوه بشير شلش ووليد الشيخ وأشرف الزغل وأنس العيلة؟ أراني اليوم وقد مت وظللت أنت الحي. أتذكر وقوفك الطويل عند فيلم "صمت الحملان". تحليلك الذي دفعني إلى رؤية الفيلم مرات عديدة في جلسة واحدة كي أصل إلى ما وصلت إليه: الحسد! لخصت هذا الفيلم بكلمة واحدة: الحسد!

أحسدك يا حسين، أحسدك لأنك غادرت في الوقت الملائم - إذا جاز القول إن للغياب توقيتاً ملائماً - وكلما قرأتك شعراً ونثراً، وكلما تذكرت وصف أسفارك في المدن الكبيرة والعادية والعاهرة، نزفك الذي لم يهدأ، صورتك وأنت جالس في كهف صغير في كوبر تقرأ على ضوء شمعة، جسدك الذي وقف أمام سطوة الشعر والمرض والهزائم وغياب الأصدقاء والعجز أمام توحش الموت، حياتك المكثفة شعراً وتجارب وعمقاً كأنها تُغني عن عيش ألف عام. كنت حقيقياً في كل شيء يا حسين حتى في موتك.

من كتاب "سأكون بين اللوز" كتب حسين:

قيل إن في القصب سرّاً إلهياً، كان الله قد أودعه في صدر النبي محمد، ولم يستطع النبي تحمّله فباح به إلى علي بن أبي طالب، وأمره أن لا يبوح به لأحد. ولم يستطع علي تحمّله، أيضاً، فذهب إلى واد عميق وبعيد وباح لقصب ذلك الوادي. ومن يومها وكل ناي من القصب تصدر عنه نغمة هي سرّ إلهي ممنوع لفظه بالكلام. وحزن الناي، كما يقول مولانا جلال الدين الرومي، حنين الخشب أو القصب الذي صنّع منه إلى غاباته الأولى التي قُطع منها، إلى "أصله"، أو "واديه الأول". ■

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

(القضية الفلسطينية / آفاق المستقبل - ١٠)

العلاقات المصرية - الفلسطينية

آفاق القضية ما بين المسار الشعبي والرسمي

تحرير الأعرج و محمد العجاتي